من ذلك، بكثير، وأعمق؛ وهو لذلك لجأ إلى توسيع تناوله للموضوع على مستويين أساسيين:

ـ المستوى الأول، تاريخي؛ حيث أنه لم يطرح هذه «المسألة اليهودية» فقط بدءاً من الحقبة الأوروبية في تاريخ الشتات اليهودي، بل انه يتتبع جذور المسألة اليهودية، منذ مصر الفرعونية، أي منذ موسى حتى الآن، مع التوقف عند أهم المحطات في هذا التاريخ.

ـ المستوى الثاني، انه يضع هذه المسألة ويحاول أن ينظر إليها من داخل المنظور اليهودي، طوال تاريخ الشتات، وليس فقط كما يراها «آخرون»، أي غير اليهود.

يتوقف الكاتب في تاريخ الشتات اليهودي حتى إقامة دولة اسرائيل، عند أربع محطات يعتبرها رئيسية: تحطيم المعبد على يد نبوخذ نصر ووضع اليهود تحت الحماية البابلية. ثم الحماية الرومانية، ثم «الحماية الإسلامية»، ثم الحقبة الأوروبية في شقيها الغربي والشرقي.

والأهمية التي تحتلها الحقبة البابلية في تاريخ الشتات اليهودي؛ أنها بتحطيمها المعبد، الذي كان، إلى حد كبير، مركز السلطة اليهودية (الدولة ـ المعبد)، قد وضع هذه الأخيرة لأول مرة خارج المركز المكاني المتمثل في المعبد، وقسم السلطة المدنية (أو الزمنية) والدينية، فبقيت الأولى وقفاً على السلطة الحامية، في حين بقيت الثانية بين يدي الكهان والحاخامات الذين أصبحت مهمتهم تأويل النصوص الدينية، وتنظيم البنى الداخلية للجالية اليهودية، لتحقيق بقاء «القانون» وبقاء «القبيلة» حتى خارج «الفضاء»، أي خارج «الفضاء» اليهودي، أي داخل المجال السياسي البابلي.

وقد بقيت هذه الحماية قائمة حتى عند اعادة بناء المعبد للمرة الثانية، الذي لم يتم بقرار يهودي، بل بقرار سياسي غير يهودي، من قبل الملكين: قورش الأكبر وداريوش؛ بحيث أصبحت القدس، من جديد، عاصمة اليهود، ولكن «متروبولهم» أي عاصمة ولائهم، بقيت في الخارج.

والحقبة البابلية هي التي دشنت العلاقة التي ما انفكت الجاليات اليهودية تقيمها مع السلطات الحامية، ومع مراكز القرار السياسي التي أصبحت تقع خارج المجموعة اليهودية.

هذه الحالة، شهدت نقلة نوعية هامة تحت الامبراطورية الإسلامية، فالكاتب يبين أن الإسلام في بداياته الأولى لم يكن معادياً لليهود لا كديانة ولا كمجموعة بشرية، على الأقل طوال الفترة المكّية من حياة الرسول، وأنه لم يبدأ موقفه منهم إلا خلال الفترة «المدينيّة»، عندما بدأت يثرب تتحول إلى نواة للدولة الإسلامية الوليدة، وعندما بدأت القبائل اليهودية في المدينة تحاول عرقلة هذا المشروع، لأسباب تتعلق بمصالحها الخاصة، وهذه القبائل هي: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريضة.

غير أن الكاتب يقرّ أن وضع اليهود تحت الخلافة الإسلامية كان جيداً في مجموعه، فهم وإن كانوا في موقع أهل «الذمة»، إلا أنهم كانوا يتمتعون بحقوقهم كاملة، وهم قد شاركوا، بشكل مباشر، في الحضارة الإسلامية بكتابهم وفلاسفتهم وشعرائهم ووزرائهم الخ... إلا أن الكاتب يتوقف عند مسألة معينة، يعتبرها قاطعة في تاريخ الشتات اليهودي؛ وهي أن اليهود تحت الحماية الإسلامية حققوا أمرين أساسيين: فتحت اشراف الدولة الإسلامية تحققت مركزية المؤسسة الدينية ـ القانونية اليهودية، عندما عينت الدولة حاخاماً أكبر، يشرف على كل حاخامات اليهود ويمثل المرجع الأعلى والأخير في كل أمور الشتات؛ مما حافظ على وحدة هذه المجموعة البشرية، سواء على صعيد التشريع أم على صعيد وهم الانتماء إلى مجموعة عرقية واحدة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن يهود الحقبة الإسلامية قد حققوا تحولاً سوسيولوجياً، اقتصادياً خطيراً هو الذي أصبح يسمُّهم، في ما بعد وربما حتى الآن؛ وهو أن هذه الحقبة شهدت انتزاع اليهود نهائياً من خدمة الأرض، وتحويلهم إلى ذلك النشاط التجاري، الخدماتي الذي أصبح سمتهم الأساسية؛ وهو ما حافظوا عليه، حتى بعد سقوط الأندلس وتشتتهم في أوروبا.

إلا أن الكاتب يتوقف بشكل خاص عند هذه الفترة الأوروبية بشقيها الشرقي والغربي اللذين تناغما وتظافرا، بشكل كامل، لينتجا المسألة اليهودية كما هي الآن، ففي أوروبا الشرقية استفاد اليهود من حالة استثنائية من التسامح تجاههم في **بولندا**، أدت إلى تحقيق عدة ملامح أساسية لعل أبرزها: